الفصل الخامس

- التجار .
- عناصر التجار :

(العرب – البربر – الأندلسيون – أهل الذمة)

- تنظيمات التجار :

(جملة – بالمقطع ، بالمفْرق)

- علاقة التجار بالدولة .

obeikandl.com

التجار في المغرب الأقصى

كانت التجارة من أهم المهن التي عمل بها التجار في المغرب الأقصى ، فعن طريقهم يتم البيع والشراء ، ويجد السكان ما يحتاجون إليه عند هؤلاء التجار[١]. واعتبر أبو الفضل الدمشقي أن التجارة أفضل المعايش حيث قال : " التجارة إذا ميزت من جميع المعايش كلها وجدتها أفضل وأسعد للناس في الدنيا والتاجر موسع عليه وله مروءة ، ومن نبل التاجر أن يكون في ملكه ألوف كثيرة ولا يضره أن يكون ثوبه مقارباً "[٢] .

وكانت طبقة التجار المكونة من العرب أو البربر أو الأندلسيين هي الطبقة الوسطى في المغرب الأقصى[٣] .

• عناصر التجار :

كان سكان المغرب الأقصى يمثلون عناصر متعددة السكان[٤] فقد كان العنصر الغالب هم البربر على باقي عناصر السكان ، ثم يأتي بعد ذلك العنصر العربي ، حيث يمثل العنصر الثاني في بناء المجتمع المغربي في ذلك العصر . والى جانب البربر والعرب وجدت أقليات من الأندلسيين والسودانيين والغز واليهود[٥] والمهاجرين والنصارى الذين شكلوا عنصراً من عناصر سكان المغرب الأقصى . ويرجع أصل كثير من الأندلسيين وأهل الذمة إلى أصول بربرية أو عربية ، إلا أن كلا من الأندلسيين وأهل الذمة كانت لهم سماتهم المميزة لهم ، الأمر الذي يجعل كلا منهم يشكل عنصراً مستقلاً في المجتمع المغربي[٦] .

---

(١) حسن على حسن : الحضارة الإسلامية ص ٣٤٣ – ٣٤٦

(٢) أبو الفضل بن على الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، تحقيق البشرى الشوربجى، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، الإسكندرية ١٩٧٧م ص ٦٩

(٣) روجيه لوطورنو : فاس في بني مرين ص ٤٩ ، ١٦٠

(٤) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بني مرين ص٤٩

(٥) عبد السلام بن سوده: بيوتات فاس في القديم والحديث، مجلة البحث العلمي، العدد (٢٢) يناير – ابريل ١٩٧٤ ص ١١١

(٦) محمد عادل عبد العزيز : الحياة الثقافية والاجتماعية في دولة بني مرين ٦٦٨ – ٨٦٩هـ / ١٢٦٩ – ١٤٦٥م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ١٧٠

- البربـــر :

يكون المغاربه (البربر) الغالبية العظمى من عناصر السكان التي استوطنت بلاد المغرب منذ القدم ، وأول من أطلق عليهم هذه التسمية Barbari هم الرومان[١] ويقسم النسابون البربر إلى قسمين كبيرين هما (البتر والبرانس)[٢] .

ويقوم النظام الاجتماعي عند البربر على أسس قبلية محضة ، فالقبيلة هي عماد النظام سواء كانت تعيش على الريادة (الرعي)[٣] أو الغزو ، أو مستقرة تتكسب من الفلاحة وتربية الأغنام ، وتتكون القبيلة البربرية من عشائر وأسر ، والـولاء الأول للقبيلة، فالعصبية عند البربر تقوى كلما ضاق المجتمع، وتضعف كلما اتسع ، ويرأس الأب أو الزوج الأسرة وله السلطان المطلق عليها[٤] .

وكان للبربر من البتر والبرانس في المغـرب الأقصـى دور ، ففـي عصـر المرابطين كان فرع صنهاجة من البرانس أصل دولة المرابطين[٥] وعندما آل الحكـم

---

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص ٢٨. وقد تضاربت روايات المؤرخين حول النسب الأصلي للبربر ومع تضارب هذه الروايات يمكننا أن نقول إن جيل البربر كغيره من الأجيال التي عبرت الأرض وانتشرت في أرجائها طلباً للرزق ، وأنها اتخذت المغرب موطناً لها . وتكاثرت هذه الجماعات حتى أصبحت أعدادا هائلة ، متخذه شكل القبائل . (حسن على حسن : الحياة الإدارية والاجتماعية في المغرب ص ٣٢٨)

(٢) يغلب على شعوب "البرانس" ميلهم للاستقرار في القرى الساحلية والواقعة في التلال والجبلية ، والنواحي الخصيبة المحيطة بجبال الأوراس، وفى الجهات الجنوبية والوسطى من إقليم الجزائر، والتوغل إلى مراكش ، والجزء الشرقي من جبال أطلس ، حتى أنهم وصلوا إلى مصب نهر السنغال ومنحنى نهر النيجر . أما شعوب " البتر" فينتمون إلى أربع قبائل كبرى رئيسية هي (أداسة ، ونفوسة وضرية ، ونبلولوا الأكبر أو لواتة) وهذه القبائل الأربع الرئيسية تتفرع إلى الكثير من الفروع . ويغلب على شعوب البتر طابع البداوة ، ويكونون غالبية سكان القرى الصحراوية . فهم ينزلون بسلسلة الوديان الصحراوية والرعويه التي تمتد من طرابلس إلى تازا، وينتشرون في إقليم السوس الأقصى ، كما توجد بعض بطونهم بجبل نفوسه وإقليم الجريد ، أما قبيلة " زناته" فكانت تسكن المنطقة الممتدة ما بين غدامس والسوس الأقصى ، ومن الملاحظ أن أغلب الزناتيين يقيمون في المناطق الداخلية في المغرب الأوسط . (ابن خلدون : العبر ج٥ ص ٨٩ ، ج ٦ ص١٧٧ ، ١٧٨، ١٩٨، ٢٠٣ ، الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١ ، ص ١- ٣١ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٣-٢١٤)

(٣) الريادة : من مادة الرائد وهى حرفة الأعراب الذين يختلفون بمواشيهم إلى المراعى مقبلين ومدبرين . (المعجم الوسيط)

(٤) عبد الوهاب منصور : قبائل المغرب ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٦٨م ، ج١ ص٢٨٠

(٥) إسماعيل بن الأحمر : بيوتات فاس الكبرى ، الرباط ١٩٧٢م ص ٢٦

للموحدين احتلت قبائل المصامدة في عصر الموحدين مكاناً مرموقاً بين القبائل الأخرى . ولما سقطت دولة الموحدين وقامت الدولة المرينية احتلت قبائل زناته التي ينتسب إليها بنو مرين مركز الصدارة والزعامة بين باقي القبائل البربرية[1] .

– العـرب :

العرب هم العنصر الثاني من عناصر السكان في المغرب الأقصى[2] وتألف العنصر العربي من العرب الفاتحين ، بالإضافة إلى القبائل العربية إلى جاءت في منتصف القرن الخامس الهجري[3] فمع دخول العرب إلى مدن المغرب الأقصى ، كان لهم تأثير حضاري كبير ، فقد تصاهر أهل فاس مع أهل القيروان[4] ومن بطون قبائل العرب قبائل " المعقل"[5] فيذكر ابن خلدون : " إن عرب الخلط وسفيان وبني جابر وهم من بطون جشم[6] انتهت رئاستهم إلى قبيلة سفيان سائر أيام الموحدين ،

---

(١) ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص٢٢-٢٣ ، النميرى : فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، ص ٣٩٥

(٢) فقد وفدت وفود العرب من بلاد افريقية والقيروان والأندلس والعراق ، من القيسية والأزد ، ومدلج وبني يحصب وغيرهم ، عند بناء مدينة فاس على يد إدريس الثاني فأسكنهم بالمدينة وجعلهم بطائنه دون البربر. (ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٢٩، ٣٩ ، ٤٥-٤٦)

(٣) هي الهجرات العربية التي عرفت في التاريخ المغربي " بالغزو الهلالي" وكانت الهجرة من المغرب الأدنى إلى المغرب الأقصى مستمرة خلال قرن من الزمن ، منذ خراب القيروان سنة (٤٥٢هـ / ١٠٦٠م) وحتى الفتح الموحدى للبلاد الشرقية . (ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٣-٢١) ويذكر عبد الواحد المراكشي ذلك بقوله " كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمرها بعبث العرب فيها فر منها أهلها ، ونزل أكثرهم مدينة فاس" . (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٤٤٣ ، عز الدين احمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ص ٩٣)

(٤) عز الدين احمد موسى : نفس المرجع ص٧٥

(٥) بنو معقل : أول دخول المغرب الأقصى أعدادا قليلة ثم تكاثروا بعد انضمام عدد من القبائل إليهم من غير نسبهم ، فيهم من بني فزاره بن ذبيان وفيهم من بني أشجع بن زيد بن غطفان ومنهم من الصهانجة والصباح بن الأخضر والعمور بن الاتبج وفيهم بطون من هلال وسليم، وكانوا أول أمرهم يدفعون لزناته قبل سيطرتهم على المغرب ضريبة يسمونها " جمل الرحيل" . (ابن خلدون : العبر ج٦ صـ ٥٨-٥٩ ، الناصرى : الاستقصا ج٢ صـ١٧٧ – ١٧٩)

(٦) قبائل جشم : قبائل كثيرة لا ينحدرون من نسب واحد وإنما غلبت عليهم تلك التسمية ، ومن أبرزها المقدم والعاصم والاتبج وقرة ، وهؤلاء من بني هلال ، بينما كان الخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعه وكان قبائل الخلط على عهد الخليفة الرشيد الموحدى تناهز الاثنا عشر ألفا انحازوا تماماً إلى المرينيين بعد معركة أم الرجلين بين المرتضى والمرينيين سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م (ابن خلدون : العبر ، ج٦ ص٢٥-٢٨ ، ٣٠ ، ابن الأحمر: روضة النسرين ص ٢٣، الناصرى : الاستقصا ، ج٢ ص ١٧٠-١٧٦)

وعندما دب الوهن في جسد الدولة الموحدية كانت لهذه الجموع الغلبة على مقاليد الأمور في الدولة ، وحين استولى بنو مرين على فاس لم تكن فيها حامية اشد منهم بأساً " وكانت هناك وقائع وحروب مع قبائل رياح[١] .

ويذكر ابن صاحب الصلاة: " أن بأحواز مدينة فاس من عرب بني الرياح وبني جشم وبني عدى وقبائلهم ما يضيق الفضاء على عدد الذباب وعدد الحصى "[٢]

وكان للعرب أثرهم الواضح في مجريات الحياة العامة ، فقد بدا واضحاً دورهم في الحياة الاقتصادية ، فعلى صعيد الثروة الحيوانية كانت عنايتهم المعروفة بتربية المواشي والأبقار والخيول قد انعكست على القبائل البربرية المستقرة بالبلاد فاشتهرت بعض الأصناف ، منها الخيول الفازازية(نسبة لقبيلة عربية من قبائل الهلالية)[٣] . وزيادة على ذلك فقد بدت مساهمتهم واضحة في مجال الزراعة[٤] فهم ادخلوا طرقاً جديدة في زراعة النخيل[٥] كما كان لهم دور واضح في حقل التجارة أولها في تأمين الطرق التجارية وحمايتها[٦] . وقد عمل العرب في العديد من الحرف منها : نسج الحرير وبيعه غير منسوج ، بيع العطور ، وسبك الشمع ، ونسج غزل الكتان ، وبيع لبن البقر لمعامل الأجبان ، وعمل البعض في بيع الفاكهة والخبز والخضار[٧] .

– الأندلسيون :

شكل الأندلسيون العنصر الثالث من عناصر سكان المغرب الأقصى . ويطلق اسم " الأندلسيون " على أهل الأندلس باختلاف أصولهم سواء

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص ٣٢-٣٦ الناصرى : نفس المصدر ج٢ ص١٥١، ج٣ ص ٣-٧ ، مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ٢١٠

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة ص١٤٤

(٣) لسان الدين ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط من كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق احمد مختار العبادى ومحمد إبراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ، ج٣ ص١٦٨ ، مصطفى أبو ضيف : اثر القبائل العربية ص٢٩٣-٢٩٥

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ص٣٠ ، مصطفى أبو ضيف : نفس المرجع ص٣٠٤

(٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج٦ ص١٢٠

(٦) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج٦ ص٣٠ ، حسن على حسن : الغزو الهلالي للمغرب (أسبابه ونتائجه) المجلة التاريخية المصرية ، مجلد (٢٤) ١٩٧٧م ص ١٣٩ ، مصطفى أبو ضيف : مرجع سابق ص٣٠٤

(٧) ابن الأحمر : بيوتات فاس الكبرى ص٢٣

عربية أو بربرية أو من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا فاندمج أحفادهم مع المسلمين[١] .

وقد استقر الأندلسيون في فاس منذ عهد الأدارسة[٢] وكانت الهجرة إلى المغرب في كثير من الأحوال وسيلة من الوسائل التي اتبعها الأندلسيون للخلاص من الأزمات الداخلية[٣].

ثم إن المصالح الداخلية والخارجية للأندلس لعبت دوراً كبيراً في هجرة العناصر الاسبانية الإسلامية إلى المناطق الساحلية في المغرب الأقصى[٤] فمنذ منتصف القرن السادس الهجري تدفقت الهجرات الأندلسية على المغرب نتيجة للكوارث التي ألمت بالمسلمين في الاندلس . خاصة بعد سقوط عدد غير قليل من المدن الأندلسية بيد الممالك الاسبانية وبوجه خاص في النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي[٥] .

---

(١) ويذكر عبد الواحد المراكشي : " إنه لما اضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت محمد بن أبي عامر وابنه رحل منها من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس " (عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٤٤٣)

(٢) هاجر إلى فاس بعد موقعة الربض في عهد الأمير الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ / ٧٩٦-٨٢٢م) ثمانية ألاف أسرة وسميت الأرض التي استقروا عليها بـ " عدوة الأندلسيين " (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٣٢-٥١ ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١-٥٠)

(٣) ج.س كولان : الأندلس ، ترجمة إبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس وحسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني (ط١) بيروت ١٩٨٠م ص١٤٧

(٤) يذكر المقري نقلا عن ابن غالب : " أن أهل الحواضر في الأندلس عندما انتقلوا إلى المغرب الأقصى مالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الضائع فإنهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معايشهم وخملوا أعمالهم وصيروهم أتباعاً لهم ومتصرفين بين أيديهم ، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وافرغوا فيه من أنواع التجويد والخدمة ما يميلون به النفوس إليهم ويصير الذكر لهم " (المقري : نفح الطيب ، ج٣ ص١٥٢)

(٥) فقد المسلمون في تلك الفترة مدنا مهمة مثل قرطبة سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م وبالنسية سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م ودانية ٦٤١هـ/١٢٤٣م وجيان سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٢م وإشبيلية سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٧م وغير ذلك من مدن . (محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ص٣١٣)

ومع زيادة التفكك في أسبانيا الإسلامية وسقوط غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر ، أتضح أن هذه الأحداث هي بداية حركة التشتت الحقيقي للأندلسيين ، ويتضح هذا من خلال التراجم العديدة التي وردت لشخصيات من مختلف المدن الأندلسية . هاجرت إلى مدينة فاس بقصد الاستيطان . وبلغ عدد هذه الهجرات الاستيطانية قرابة الثمانية من مختلف المدن الأندلسية[١] وإن كانت المصادر قد أشارت إلى أعلام المهاجرين ، فلا شك أن هناك أعداداً كثيرة هاجرت دون أن تذكرها المصادر .

وقد تقبل المجتمع المغربي وجود هؤلاء الأندلسيين كعنصر من عناصر السكان ، وقد انقسموا إلى فريقين هما :

الفريق الأول : مجموعة من العسكريين ، يرجع وجودهم في صفوف الجيوش المغربية إلى أيام المرابطين ، فقد كانوا يمثلون عنصراً هاماً في الجيش المرابط[٢] كما ضم الجيش الموحدى بعض الأندلسيين[٣] .

الفريق الثاني : أغلبهم من الفقهاء والعلماء والتجار ، أو ممن تركوا ديارهم نتيجة للضغط المسيحي على بلادهم فيما بعد[٤] .

وقد كان لهم دور بارز في إثراء الحياة الثقافية في المغرب الأقصى . كذلك

---

(١) ابن الآبار : المعجم في أصحاب القاضي بن على الصدفى ، تحقيق كوديرا ، مطبعة روخس ١٨٨٥م ص١١٦ ، ١١٧، ١٥٦، ١٩٦، ٢٠٨، ٣٠٧، ٣١٩ ، أبو جعفر أحمد ابن ابراهيم (ابن الزبير) : صلة الصلة البشكوالية ، صححه وعلق عليه ليفي بروفنسال ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، الرباط ، المطبعة الاقتصادية ١٩٣٧م ، ج٧ ص٤ ، ١٤ ، ١٥، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٢، ٢٠٩ ، ٢١١، ٢١٢ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٥م ج١ ، القسم الأول ص ٨٧، ٩١ ، ١٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٣٤٧، ٣٤٨ ، ٣٦٧ ، ٥٥٢ ، ج٥ القسم الأول ص ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٨٧ ، ٢٥٦ ٢٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٤١٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ . المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض ٣ أجزاء ، ضبطه وحققه وعلق عليه مصطفى السقا ، وإبراهيم الابياري ، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٠م ١٩٤٢م ، ج٢ ص ٣٦١ .

(٢) مجهول : الحلل الموشية ص٩١ ، محمد المنوني : نظم الدولة المدنية ص٢١٥

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج٥ ص ١٣٧ ، الناصرى : الاستقصا ج٢ ص٢٥٤

(٤) ابن خلدون : المقدمة ج٢ ص١١

وجد الكثير من الفقهاء والعلماء الأندلسيين[1] فنجد عناصر أندلسية اكتسحت الميدان ولعبت دوراً رئيسياً فيه نظراً لما كانت تتوفر عليه من مكانة سامية ومركز اجتماعي مهم .

وقد قام الأندلسيون بدور هام في الحياة الاقتصادية في المغرب الأقصى فقد انشأ الأندلسيون صناعة جديدة لصنع غطاء خاص للرأس في مدينة فاس حيث يسمى في فاس " الشاشية أو الطربوش " والتسمية منقولة من مكان الصنع الأصلي[2] .

وكذلك فإن تجار الأقمشة الصوفية في القيسارية بفاس كانوا من الأندلسيين وكان لتجار هذا المجال حيان مخصصين لهم ، وهذه الأقمشة أغلبها ترد من أوربا[3]. وقد نقل الأندلسيون للمغرب الاهتمام بتربية " دودة القز" حيث حرصوا على تربيتها لاستغلالها في إنتاج الحرير[4]. كما كان للأندلسيين دور هام في تعليم المغاربة دقة الصنعة في الخياطة وكان " محمد بن احمد بن طاهر الأنصاري الاشبيلي النحوي " المعروف بالأحدب بفاس ينتحل صنعة الخياطة وقد رأس أهل عصره وأخذ عنه الكثيرون[5]. كما كانت اغلب فنون التطريز والترقيم التي عرفتها المغرب من أصل أندلسي[6] .

وتعلم المغاربة فن تفسير الكتب على أيدي الأندلسيين أمثال " أبو الحسن بن محمد القيسي القرطبي " و " ابن الاشبيلي " الذي استوطن فاس فعرف بالفاسي[7] .

وقد بلغت معامل إنتاج الورق في مدينة فاس وحدها أربعمائة معمل[8] كما شاع في المغرب الخط الأندلسي[9]. وعندما هاجر عدد كبير من اليهود الأندلسيين إلى

---

(١) ابن طفيل ولد في إحدى القرى الأندلسية وتقلد عدة مناصب من بينها وظيفة كاتب لحاكم ولاية غرناطة ، وحاكم ولاية طنجه ، وكان طبيبا لأحد خلفاء الموحدين وهو أبو يعقوب يوسف ، ومن أهم مؤلفاته " حي بن يقظان " وتوفى في مراكش ٥٨١هـ /١١٨٥م ، كذلك ابن رشد ارتفع شأنه في خلافة أبى يوسف يعقوب المنصور.(عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ١٣٣ -١٣٦ ، ١٧٤ - ١٧٥)

(٢) وقد عرف هذا الغطاء في أوربا باسم " الفز" نسبة إلى مدينة فاس حيث كان يصنع . (روجيه لوطورنو : فاس في عصر بني مرين ص ١٣٥)

(٣) الحسن الوزان : مصدر سابق ج١ ص٢٤١

(٤) عبد العزيز عبد الله : مظاهر الحضارة بالمغرب ج٢ ص١٠٠

(٥) عبد العزيز عبد الله : نفس المرجع ص ١٠٣

(٦) عبد العزيز عبد الله : نفس المرجع ص ٩٥

(٧) محمد المنوني : العلوم والأدب والفنون على عهد الموحدين ص ٢٦٧

(٨) محمد المنوني : المرجع السابق ص٢٥٦

(٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٧

المغرب ، امتهنوا نفس المهن التي كانوا يمارسونها في الاندلس مثل التجارة والبناء[1].

– السودانيون :

كان السودانيون من العناصر السكانية التي سكنت المغرب الأقصى في مدن مختلفة ، وأشتغل كثير منهم بالتجارة ، وقد كان يتم جلبهم من بلاد السودان ، وكانت أعدادهم بفاس كبيرة ، حيث استخدم المرابطون الرقيق السود في جيوشهم وتنظيماتهم العسكرية حتى صاروا يكونون فرقة كاملة في الجيش[2] . وكان من الطبيعي أن تتزايد أعدادهم في المدن المغربية ، ويتضح ذلك في العدد الذي فرض على أهل فاس أن يقدموه وهو " ثلاثمائة غلام" من هؤلاء السودانيين بنفقاتهم وسلاحهم في أحد حملات " يوسف بن تاشفين" على الاندلس[3] .

– (أهل الذمة)...اليهود :

عاش اليهود في المغرب قرونا عدة ، قبل أن يفتحها المسلمون ، وقد خضعوا خلال هذه المدة الطويلة للعديد من الأمم والأقوام الذين تعاقبوا على حكمها.

فقد اعتنق فريق من السكان الديانة اليهودية ، ومن المحتمل أن يكونوا هؤلاء من " البربر" الذين اعتنقوا اليهودية في عهود قديمة واستطاعوا المحافظة على معتقدهم[4] وقد علل ابن خلدون ذلك بقوله " ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ، كما كان جراءة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح ، وكما كانت نفوسه من برابر افريقية وفندلاوقة ومديونة وبهلولة وغياثة ، وبنو بازاز من برابرة المغرب الأقصى"[5]. وقد كرههم أهل هذه البلاد وحكامها ، وضيقوا عليهم ، وذلك رداً على كره اليهود لهم واستعلائهم عليهم ، واستهزائهم بمعتقداتهم ، واستغلال كسب

---

(١) مارمول: إفريقيا ج٢ ص١٥٥، حاييم زعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب ص ١٥٤

(٢) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة بيروت ١٩٨٢ ج١
إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص٢٢٢

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج٤ ص٢٣ ، حسن على حسن : الحضارة الإسلامية ص ٣٢٢ ، ٣٢٣

(٤) عطا شحاتة : اليهود في بلاد المغرب (رسالة ماجستير) ص ٢٤

(٥) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٠٧

أموالهم بالربا ، وبالطرق غير المشروعة . وعندما فتح المسلمون المغرب ، رفعوا الاضطهاد عن اليهود ، وتعاملوا معهم وفق الأحكام الشرعية الخاصة بأهل الذمة ، فسمحوا لهم بالبقاء على دينهم ، وممارسة شعائرهم وتركوا لهم حرية السكن بين المسلمين ، أو فى أحياء خاصة بهم عرفت في الحقب اللاحقة بـ " الملاح "[١] وأتاحوا لهم مزاولة ما شاءوا من أنواع النشاط الاقتصادي ، وحفظوا أرواحهم وأموالهم وحقوقهم ، فشهدوا عدلاً وتسامحاً وحرية لم يعرفوها من قبل .

ولقد تمركز الكثير من اليهود في موضع فاس قبل بناء المدينة على يد إدريس الثاني ١٩٢ -١٩٣هـ/ ٨٠٧- ٨٠٨م بين قبائل زناتة وزواغة وبني يزغت[٢] إلى جانب هجرة الكثير من يهود الضاحية الجنوبية بقرطبة أيام إدريس الثاني بعد إبعادهم عنها نتيجة ثورة ٣٠٢هـ / ٨١٨م[٣] فيذكرها البكري أنها : " أكثر بلاد المغرب يهوداً ، ويختلفون منها إلى جميع الآفاق " [٤] وقد حظيت فاس باهتمام بالغ من يهود الشرق وخاصة من العراق[٥] . كما كانت قبلة اليهود في المغرب الأقصى والأندلس .

ويعد اليهود من الجاليات الهامة التي عاشت في المغرب الأقصى متخذينه وطناً لهم . فقد شكل اليهود طبقة كبيرة من طبقات المجتمع ، وقد أشارت العديد من المصادر إلى وجود تجمعات كبيرة منهم بفاس[٦] ومما يدل على ذلك كثرتهم وامتلاكهم الأملاك والمتاجر والديار بالمدينة حيث يقع بعض هذه الأملاك والديار بالقرب من جامع القرويين[٧] ولعلها كانت تتمركز في الحي المجاور لباب الجيسة[٨] وكذلك في مدينة درعة يوجد بها تجار يهود[٩] وكان في مدينة مكناسة يهود[١٠] وكذلك

---

(١) العمري : مسالك الأبصار ص ١١٤ ، عبد الهادي التازى : التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم ، مطبعة فضالة المحمدية ، ١٩٨٨م ، ج٢ ص ٢٥٩ ، ألفريد بل : الفرق الإسلامية ص ٣٢٧ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٣١ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣ ، الناصرى: الاستقصا ج١ ص١٥٠ ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص٤٤

(٣) عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١ ، القاهرة ٢٠٠١م ص٤٩

(٤) البكري : المغرب في ذكر أفريقية والمغرب ص١١٥

(٥) عبد الرحمن بشير : مرجع سابق ص٤٩ .

(٦) البكري : مصدر سابق ص١١٥ ، مجهول : الاستبصار ص٢٠٢

(٧) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٥٩

(٨) الناصرى : الاستقصا ج٢ ص٣٩ ، روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مرين ص١١١٠

(٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤٥١/٢

(١٠) البيذق : أخبار المهدي ص١٢٤

في مدينة مراكش[١] وفى مدينة أغمات[٢] وسجلماسة يوجد أيضا فيها يهود[٣] وفى أغلب مدن المغرب الأقصى يوجد فيها يهود[٤] .

وفى عهد المرابطين اتخذوا موقفاً متشدداً نحو اليهود فيذكر الإدريسي أن اليهود: " لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها على بن يوسف بن تاشفين المرابطى ولا تدخلها إلا نهاراً وتتصرف منها عشية ، وليس دخولهم في النهار إلا لأمور له وخدم تختص به ، ومتى عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه ..."[٥]

أما في عهد الموحدين فيذكر المراكشي موضحاً مدى تشدد الموحدين نحو أهل الذمة في المغرب فيقول : " ولم تزل تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة "[٦] فقد مر أهل الذمة (اليهود والنصارى) بفترات مختلفة في بداية دولة الموحدين في عهد عبد المؤمن بن على ثم في فترة خلفائه من بعده .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٣١

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص٥٠ ، مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المركشية ص ١٤ ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٩

(٣) البكري: نفس المصدر ص١٤٨-١٤٩، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ص ٢٠٢

(٤) حاييم زعفراني : ألف سنة من حياة اليهود في المغرب ص ١٥٦

(٥) الإدريسي : نزهة المشتاق ص٦٦ ، عز الدين احمد موسى : مرجع سابق ص١١٣

(٦) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣٨٣ ، كمال السيد أبو مصطفى : جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الاسلامى من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الاسكندرية للكتاب ، ١٩٦٦م ، ص ٣٨ . أما في عهد المرينيين وفى بداية حكمهم وقف سلاطينهم ضد استخدام اليهود في الجهاز الإداري ، وابلغ دليل على ذلك استنكار وزير السلطان " أبى يعقوب يوسف بن يعقوب " في القاهرة وكان يجلس في حضرة السلطان " بيبرس الجاشنكيز " فحضر إلى المجلس احد كتاب النصارى ، فقام إليه الوزير المغربي على اعتقاد منه بأنه مسلم فلما ظهر له انه نصراني قامت قيامته ، وقام السلطان يتحدث معه في أمر النصارى واليهود وإخباره أنهم بالمغرب في غاية الذل والهوان . (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، نشر دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص١٣٣، القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣ ص ٣٣٧) ولكن الوضع اختلف وثبت غير ما قاله الوزير عندما توطدت أركان الدولة في عهد السلطان أبو يوسف المرينى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م ... وقد استخدم السلطان " خليفة بن حيون بن زمامة " اليهودي حاجباً له ، وأصبح لليهود وضع داخل الدولة. (ابن الأحمر: روضة النسرين ص٣١، النفحة النسرينية واللمحة المرينية ص٣٩)

فقد أعلن عبد المؤمن بن على بأن دولته على ملة الإسلام وخير أهل الذمة وقال: " إن المهدي أمرني أن لا أقر الناس إلا على ملة الإسلام ، وأنا مخيركم بين ثلاث ، إما أن تسلموا ، وإما أن تلحقوا بدار الحرب ، وإما القتل فأسلمت طائفة ، ولحقت أخرى بدار الحرب ، وخرب كنائسهم ، وعملها مساجد ، وألغى الجزية ، وفعل ذلك في جميع مدائنه "[1] وبذلك لم يدع مشركاً في بلاده ولا يهودياً ولا نصرانياً ، فجميع رعيته مسلمين[2].

وقد حدد مدة مشروطه لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين ، ومن بقى على رأس أهل ملته ، فإما أن يخرج قبل الأجل الذي حدده ، وإما أن يكون بعد الأجل فيكون في حكم السلطان مستهلك النفس والمال ، ولما استقر هذا الأمر خرج المخفون ، وبقى من ثقل ظهره وشح بأهله وماله وأظهر الإسلام وآسر الكفر[3] .

وقد اتخذ عبد المؤمن بن على هذا الأمر مع أهل الذمة ، وذلك لخوفه من دسائس وخيانات أهل الذمة ، وقد عايش ذلك بنفسه حيث خان جنود النصارى جيش المرابطين ، وفتحوا أبواب مدينة مراكش ، وبذلك مكنوا الموحدين من احتلال المدينة[4] .

ولن يكون هذا عذراً يلتمس لعبد المؤمن بن على ، حيث أن هذا الموقف يعتبر خروجاً على الدين الإسلامي حيث يأمرنا المولى عز وجل " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ "[5] .

فإن هذا الموقف من عبد المؤمن بن على كان قاصراً عليه فإن ولاة الأمر من المسلمين لا يسمح لهم بفرض الإسلام بالقوة[6] .

---

(١) الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ ، ج٢٠ ص ٣٧٠

(٢) الذهبي : نفس المصدر ص٣٧١

(٣) جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، بتصحيحه محمد امين الخليلي ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨هـ ، ص ٢٠٩

(٤) حسن على حسن : الحياة الإدارية ص ٤١٩

(٥) البقرة : ٢٥٦

(٦) حسن على حسن : نفس المرجع ص٤١٩

وقد انتهى أمر خروج أهل الذمة بعد موت عبد المؤمن بن على ، فقد تغير الوضع مع أهل الذمة مع خلفاء عبد المؤمن بن على ، حيث سمح خلفاء عبد المؤمن ابن على لأهل الذمة الإقامة في دولتهم .

ففي عهد الخليفة يعقوب بن يوسف ثالث خلفاء الموحدين (٥٨٠- ٥٩٥ هـ / ١١٨٤-١١٩٩م) أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك بثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم ، وبدلاً من العمائم كلونات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزى في جميع يهود المغرب ، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبى عبد الله الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ/ ١١٩٩-١٢١٣م) وفى حكم الناصر استغاث به اليهود واستشفعوا لديه لأقالتهم من هذا الزى المرهق ، فأمر أن يستبدلوه بثياب صفر وعمائم صفر ، واستمروا على ذلك بقية حكم الموحدين[١] .

وقد خرج اليهود مع أهل مراكش لصلاة الاستسقاء ، حتى لم يبقى في المدينة أحد ، لا نساء ولا أطفال ولا بهائم ولا اليهود والنصارى لكي ينزل الغيث في زمن المنصور[٢] .

ولقد عمل اليهود في التجارة في المغرب الأقصى ، لذلك اخذوا في توظيف مدخراتهم التي جمعوها من تجارة الذهب والصياغة والصرافة وغيرها إلى مبادلة النقد وتلقى المال من الملوك والأمراء لاستثماره في التجارة ، ثم إلى إقراض المال بالربا[٣] . ولذلك فإن اليهود لم يكونوا موضع حب الأهالي أو ثقتهم بل كانوا محطة شكوك الجميع[٤] .

---

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١٧٣ ، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ص ٢٠٥ ، محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ص ٢٣٥

(٢) عباس بن إبراهيم : الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام جـ١ ص ٢٧٨

(٣) مارمول كرفجال : إفريقيا جـ٢ ص٥٥ ، ول ديورانت : قصة الحضارة وعصر الإيمان ، ترجمة محمد بدران جزء ١٤ لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٧٥ ج١٤ ص٦١ ، موريس لومبارد : الإسلام في مجده الأول ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ، الجزائر ، ١٩٦٦م ، ص٣١٧ ، عبد الوهاب المسيرى : الأيدلوجيه الصهيونية ، دراسة حالة في علم الاجتماع ، المعرفة ج١ عالم المعرفة عدد٦٠ الكويت ١٩٨٢ ص ٢٢-٤١

(٤) مجهول : قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلدين ، مخطوط ورقه ٣ ، ٤ ، السيد سابق : فقه السنة ، ج٣ ص ١٧٨

وتصدرت التجارة المهن التي عمل بها اليهود في فاس ، ولعل معظم هؤلاء من يهود الشتات الذين لم يعرفوا وطناً يجمعهم أو يأمنون إليه ، ومن ثم حرصوا على أن تكون أموالهم سائلة ، لتيسير التنقل بها وإذ ما اضطرتهم الظروف السياسية أو الاقتصادية[١] ، مما أسفر عن تكوين سلسلة من التجمعات اليهودية تمركزت على طرق التجارة الرئيسية ، فأصبحوا تجاراً بالضرورة[٢] وقد حازوا خبرة كبيرة أدت إلى نجاحهم في هذه المهنة .

فقد لعب اليهود دوراً هاما في الحياة التجارية في الدولة وخاصة داخل مدينة فاس . ولذلك فقد انصرف الكثير من اليهود إلى العمل بالتجارة على نطاق واسع ، فبلغ بعضهم وضعاً مالياً متميزاً فأصبح البعض منهم من كبار الأثرياء[٣] .

كما لعب التجار اليهود دور الوسيط بين الجهات الأوروبية وداخل الأسواق المغربية وذلك لإتقانهم عدة لغات وخبرتهم في الشئون المالية والتجارية[٤] .

وانتشر اليهود في أرجاء المغرب الأقصى خاصة في الأماكن ذات الموقع المتميز كالمدن التي تتحكم في مفارق الطرق البرية والموانئ .

وكان لليهود دور هام في الحياة الاقتصادية في المغرب الأقصى فكان منهم تجار البقالة ، والماشية ، والقصابون ، والخبازون ، وأصحاب الفنادق ، وكانوا لا يشترون العقارات لكي يحتفظون بحرية استعمال أموالهم ، وكان ذلك من أسباب ثرائهم وقوتهم الاقتصادية وكان من أهم الأسواق التي اشتغل بها اليهود أسواق " المواد الغذائية"[٥] وجرت العادة أن تكون أسواقها أمام أبواب المدن أو أسوارها أو أمام ضريح أحد الصالحين[٦] .

---

(١) عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي ص ٨٦

(٢) حسن ظاظا والسيد محمد عاشور: اليهود ليسوا تجاراً بالنشأة ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص٢، عبد الرحمن بشير : نفس المرجع ص٩٩

(٣) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بني مرين ص ٥٤ ،١١٣

(٤) الونشريسي : المعيار ج٦ ص١٥٧ ، عبد السلام التروماينيني : الرق ماضيه وحاضره ، عالم المعرفة ، عدد ٢٣ الكويت ١٩٧٩م ص٨٧

(٥) وقد كانت هذه الأسواق منتشرة في جميع المدن والقرى التي بها أحياء يهودية ، حيث كانت تقام داخل المعابد أو داخل الحي. (مارمول كرفجال : إفريقيا ج ٢ ص١٥ ، حاييم زعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب ص١٥٦)

(٦) عبد القادر زمامة : أزمة التجار في الأندلس ، مجلة المنهل عدد ٣٥ المغرب ١٩٨٥م ص٣٣٣ - ٣٣٤

أما الأسواق التي تخصصت في بيع الملابس والأقمشة والمنسوجات في فاس فكان لليهود دور هام فيها وخاصة انه كان لهم أسواق خاصة داخل أسواق فاس منها " سوق الخياطين "[١] كذلك كان لليهود دور كبير في صناعة الحرير فكان الحرفيون اليهود يشتركون في هذه الصناعة[٢] وكانت الملابس التي تطرز بالخيط المذهب يحتكرها اليهود لدرجة أنهم أطلقوا على أرباب هذه المهنة اسم " الصقليين(نسبة الي صقلية) "[٣] . كما اشتهروا بالصناعات المعدنية وخاصة صناعة الذهب والفضة[٤] وكذلك فقد احتكر اليهود سوق الصاغة الواقع في داخل مدينة فاس الجديدة[٥] فكانوا يصنعون المشغولات في دكاكينهم ، ثم ينتقلون ببضائعهم لبيعها في الساحة القريبة من سوق العطارين[٦] وكذلك قاموا بتصنيع الأساور والخلاخيل والأقراط والأطواق والخواتم الذهبية والفضية[٧] وبذلك اقتصر عليهم بيع بعض السلع منها ما كانت مادته الخام من المعادن مثل " القناديل والأمشاط "[٨] ، وخاصة مماشط الصوف فكان لليهود في فاس وحدها خمسة عشر دكاناً تصنع فيها هذه الأمشاط[٩] .

وقد أدى عملهم بتجارة الذهب والفضة إلى نقص ما يعود على دار السكة من هذه التجارة[١٠] كما اشتغلوا في تجارة الأحجار الكريمة خاصة المرجان المستخرج من شواطئ سبتة ، والياقوت المستخرج من جبل " هزرجه " قرب أغمات وهو ياقوت

---

(١) الحسن الوزان : مصدر سابق ج١ ص٢٤١ ، حاييم زعفراني : مرجع سابق ص١٥٥

(٢) حاييم زعفراني : نفس المرجع ص١٥٥ . وقد جلب الحرير الخام من مدينة (خميس متغارة) وهى مدينة بناها الأفارقة في ضواحي زواغه على مسافة عشرة أميال إلى الغرب من فاس ، وقد استوطنها أهل غرناطة المهاجرين إلى المغرب ، وأكثروا من زراعة أشجار التوت الأبيض للانتفاع بها في تربية دودة القز . (الحسن الوزان : نفس المصدر ج١ ص٢٢٢)

(٣) نقل الصقليون معهم هذه المهنة إلى المغرب فعرفت باسمهم . (حاييم زعفراني : نفس المرجع ص١٥٣ ، عطا شحاتة : اليهود في بلاد المغرب (رسالة ماجستير) ص ١٤٧)

(٤) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بني مرين ص١٣٩

(٥) مارمول كرفجال: أفريقيا ج٢ ص١٥٧ ، نوال على عبد العزيز : علاقات المغرب الأقصى الخارجية في عهد بني وطاس ، رسالة دكتوراه ، معهد الدراسات الأفريقية ١٩٩١ ص١٤١

(٦) الحسن الوزان : نفس المصدر ج١ ص٢٨٤

(٧) روجيه لوطورنو : مرجع سابق ص ١٣٩

(٨) يطلق على هذه الحرفة "القراشليين " بالعبرية. حاييم زعفراني: نفس المرجع السابق ص١٥٤

(٩) مامول كرفجال : أفريقيا ج٢ ص ١٥٣

(١٠) الحكيم : الدوحة المشتبكة ص٩٥

متناهي في الجودة وحسن اللون[١] ولكثرة تواجدهم بالأسواق كثرت الفتاوى التي تحذر من غشهم[٢] .

وكان ليهود المغرب الأقصى صلات قوية بينهم وبين يهود مواطني بلاد غير إسلامية جعلتهم يكونون فيما بينهم ما يشبه في عصرنا الحديث أول نظام ائتماني عالمي يسهل فيه عملية انتقال التاجر من بلد إلى أخر ، وتسهيل عمليات التبادل التجاري وتنظيمها[٣] وقد أدى ذلك لرواج التجارة وازدهارها في الموانئ المغربية المطلة على البحر المتوسط مثل ميناء سبتة وباديس وهما من أهم الموانئ التجارية التي تصدر منها السلع القادمة من مدن المغرب الاقصى[٤] ، وكان لكل جماعة من الجماعات اليهودية المتمركزة في الموانئ المغربية رسول خاص بها ينبهها بوصول القوافل والسفن القادمة من الخارج ونوع السلع التي تنقلها[٥] .

كذلك ارتبط اليهود بعلاقات مع الضامنين الذين يقومون بإيواء التجار القادمين على متن هذه السفن وتفرض الرسوم الجمركية على هذه التجارة[٦] .

وكان للتجار اليهود في المغرب الأقصى دور قوي من التجار النصارى[٧] فقد وصلوا إلى المدن السودانية فاستطاعوا السيطرة على تجارة الصحراء[٨] على أن أهم

---

(١) البكري: المغرب ص١٥٢- ١٥٣ ، الإدريسي : نزهة المشتاق ج٢ ص ٥٢٩ ، الحميري: الروض المعطاء ص ٣٠٣ ، الحسن الوزان : مصدر سابق ج١ ص٢٨٢ -٢٨٣ ، مامول كرفجال : أفريقيا ج٢ ص ١٥٧،رجيه لوطورنو : مرجع سابق ص٥٤

(٢) الونشريسي : المعيار ج٦ ص٦٨ ، مجهول : قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلدين ، مخطوط ، ورقة ٢ ، أبو عبد الله محمد بن محمد السقطي المالقى : في آداب الحسبه ، تحقيق حسن الزين ، مؤسسة دار الفكر الحديث ، بيروت ١٩٨٧م ص ٨٠-٨١

(٣) عطا شحاتة : اليهود في بلاد المغرب الأقصى (رسالة ماجستير) ص١٥٦

(٤) كانت السفن التجارية تأتى كل سنتين مدينة البندقية إلى ميناء باديس لإنزال مختلف أصناف البضائع وشحن بضائع أخرى . (ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، الحميري : الروض المعطار ص٧٥، السبتى: اختصار الأخبار عما بثغر سبتة من سنى الأخبار ص٤٥)

(٥) موريس لومبارد : الاسلام في مجده الأول ص ٣١٣ ، عطا شحاتة : مرجع سابق ص١٦٧

(٦) موريس لومبارد : نفس المرجع ص٣١٣

(٧) عاشور بوشامه : علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس ، هامش ص٣٥٠

(٨) الشيخ الأمين عوض : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان في عهد السلطتين الاسلاميتين مالى وسنغال ، دار المجمع العلمي ، جده ، ١٩٧٩م ، ص ١٦٥ ، عطا شحاتة: مرجع سابق ص ١٦٧

البضائع التي كان لليهود دور كبير فيها هي تجارة الرقيق حيث تخصص فيها اليهود المنتشرين في جميع الأقطار سواء في الاندلس أو في المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي مروراً بمصر وبلاد الشام إلى أن تصل للمغرب الأقصى . ساعدهم على ذلك إجادتهم لعدة لغات[1] .

- ... النصـــارى :

فضلا عن النصارى الذين بقوا على دينهم في بلاد المغرب[2] فإن الغالب على الجالية المسيحية هم مجموعة من الروم الذين وقعوا في الأسر نتيجة للحروب التـــي خاضها المرابطون والموحدون بالأندلس والتي أسفرت عن الكثيـــر مـــن الأســـرى النصارى الذين استخدمهم الموحدون في خدمتهم بالمغرب الأقصى وخاصة في الجيش حتى يمكن الاستفادة من خبراتهم العسكرية في مقاتلة فرنج الاندلس[3] حتـــى صـــار هؤلاء الروم ، أحد العناصر الرئيسية في جيش الموحدين وقد تردد اسم الروم كأحـــد الفرق العاملة في الجيش الموحدى خاصة في أثناء الصراع الموحدى المريني ، فقـــد قتل الأمير " محمد بن عبد الحق المرينى " في معركة أبى نياس ســـنة ٦٤٢هـــ / ١٢٤٤م بحربة احد هؤلاء الروم العاملين في الجيش الموحدى واسمه " جوان غيطان " وكذلك بعد أن تم " لأبى يحيى بن عبد الحق " الاستيلاء على مدينـــة فـــاس ســـنة ٦٤٦هـــ /١٢٤٨م تمكن قائد جند الروم واسمه " زنار" من قتل المسعود ابن خرباش

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، تحقيق دى خويه ، ليدن ، مطبعه بريل ، ١٩٦٧ ، ط٢ ، ص١٥٣، المغيلي: مصباح الأرواح ص ٤٢ ، التروماتيني: الرق ماضيه وحاضره ص ٨٧

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٤٧م ص٢٨

(٣) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٣ ، عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر ج١ ص ٤٠٧ ، حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٧ ص٣٧٩ – ٣٨٠ . ولم يكن هؤلاء النصارى من جند المرابطين (الروم) أهل ذمة ، فلم تفرض عليهم الجزية باعتبارهم مرتزقة لا يدخلون في أعداد الرعية ، وقد كانوا أحرارا في غالبيتهم ، وهم بذلك يختلفون تماماً عن نصارى العجم أو طائفة المعاهدين من نصارى أهل الأندلس أو المستعربين والذين أرغموا على التغريب ، فيقول عنهم ابن عذارى " وقع النظر على تغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم ... فنفذ العهد إلى جميع بلاد الأندلس بإجلاء المعاهدين إلى العدوة فنفى منهم في رمضان عدد جم أنكرته الأهواء " . ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، القسم الموحدى ص ٧٢-٧٣ ، محمود على مكي : وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مج (٧ ، ٨) ١٩٥٩م -١٩٦٠م ، ص ١٢٥ - ١٢٦ - ١٦٧)

عامل بني مرين على فاس بالاستعانة بأربعة آخرين من جند الروم ثم نصب زنـار نفسه حاكماً على المدينة[١] .

وقد ظهر فوز النصارى في الفترة المضطربة بين سقوط الدولة الموحدية وقيام الدولة المرينية ، وهزيمة الجيش المنسحب أمام تلمسان ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م وضم إليه عدة فرق من هذا الجيش كان منها فرقة للروم[٢] .

وأول من استعان بالنصارى كان الخليفة الموحدى المـأمون ٦٢٤-٦٣٠هـ/ ١٢٢٧- ١٢٣٢م واتفاقه مع ملك قشتاله " فرناند والثالث" سـنة ٦٢٦هـ /١٢٢٨م يحصل بمقتضاه على قوات عسكرية من الفرنج تعبر معه إلى بلاد المغرب مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة (Maravedi) من الفضة ، وأن تبنى بمراكش كنيسة للنصـارى يقيمون فيها شعائرهم ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدوة على هذا النحو[٣] وقد أمده ملك قشتاله بأكثر من خمسمائة فارس .

وقد كان في فاس أعداد كبيرة ، حيث ذكر الحسن الوزان من أن هناك عـادات اجتماعية قديمة خلفها النصارى بفاس منها الأعياد التي خلفها المسيحيون ففـي ليلـة ميلاد المسيح كان أهل فاس يأكلون نوعاً من ثريد مصنوع من خضر متنوعة ، وكان الأطفال يصنعون أقنعة على وجوههم في أول أيام السنة الجديدة . كذلك كانت توقـد النيران في أكوام التبن في كثير من الأحياء يوم القديس يوحنا[٤] .

وقد كان لهؤلاء النصارى دورهم في النشاط الاقتصادي داخل مدينـة فـاس ، فكان هناك بعض العبيد المسيحيين[٥] الذين يقومون بالعمـل بمسـتودعات الخشـب

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج١ ص ٤١٧ ، ابن عذارى : المصدر السابق ج٣ ص ٣٩٩ - ٤١٨ - ٤١٩ ج٤ ص٤٧٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج٥ ص١٣٧ ، ابن خلدون : العبر ج٧ ص١٧١ ،١٧٥ ، ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ٦٦ -٦٧- ٧٩ -٨١ -٨٢ ، ابن القاضي المكناسي : جذوة الاقتباس ص١٠٢

(٢) ابن خلدون: العبر ج٧ ص١٧٣، الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص٢٣

(٣) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص١٦٧

(٤) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ج١ ص ٢٥٨

(٥) ابن أبى زرع : الأنيـس المطرب ص ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٤٧ - ٣٤٩ - ٣٥٣

بالمدينة[1] كما عمل بعض الأسرى المسيحيين في صناعة أدوات حديدية داخل دار الصناعة الموجودة بفاس الجديدة ، تحت أمرة مسلمي الأندلس[2] .

تنظيمات التجار (جملة – بالمفْرق)

- **تجار الجملة :**

– التجار الأثرياء أصحاب رؤوس الأموال (تجار الجملة) :

كان تجار الجملة في المغرب الأقصى يعملون في نوعين من التجارة : التجارة الخارجية والداخلية ، فقد تكفل تجار الجملة في المغرب الأقصى بمهمة الاشتغال بالتجارة الخارجية فمنهم من يقومون بشراء البضائع بأنفسهم من البلدان المجاورة ونقلها بين البلاد مستفيدين من تباين الأسعار في تنمية رأس المال[3] .

وقد انقسم التجار في المغرب الأقصى إلى ثلاث فئات[4] هم :

أ- التاجر الخزان : وهو الذي يشترى الأشياء بأسعار منخفضة والتربص بها لحين ارتفاع سعرها فعليه المبادرة بالبيع عند التنبؤ بانخفاض الأسعار وتجزئة الشراء (أخذ البضاعة في حال كسادها ورخصها) وأن يتأمل أحوال السلطان أكان عادلاً أم جائراً .

ب-التاجر الركاض : وعليه التبصرة والاحتياط ويستحب له اصطحاب رقعة بأسعار جميع البضائع التي يتعامل بها هذا فضلا عن معرفته بمقدار المكوس التي تختلف من بلد لآخر .

ج- التاجر المجهز : كالوكيل المجهز بتجهيز البضائع إلى وكيله الذي يقوم ببيعها بنفسه لحساب المجهز، وينبغي أن يكون الوكيل ثقة أميناً ، وهو المتولي للبيع، وله حصة في الربح في كل ما يبيعه أو يشتريه[5] .

---

(١) عمل هؤلاء العبيد من النصارى في مستودعات الخشب الموجودة بالمدينة ، وكان أسيادهم يعطونهم ما يقتاتون به بدلاً من المال ، ولم يكن لهم غير نصف يوم من الراحة يمتد من الظهر حتى المساء من يوم الجمعة إلى جانب ثمانية أيام موزعة على السنة وهى أعياد المسلمين . (الحسن الوزان : وصف إفريقيا ج١ ص ٢٤٦ ، مارمول كرفجال : إفريقيا ج٢ ص ١٥٥)

(٢) مارمول كرفجال : إفريقيا ج٢ ص ١٥٧

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ج٣ ص ١٥٥

(٤) أبو الفضل بن الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، ص ٦٩

(٥) أبو الفضل بن على الدمشقي : نفس المصدر السابق ص ٧١-٧٥

وربما انتهى الأمر بتجار الجملة بأحدهم إلى إفلاسه أو انقطاع أخباره بعد رحلة إلى بلد بعيد[١]، ويقوم بعض التجار ببيع بضاعته في بلد آخر ليشترى بضاعة أخرى مختلفة فينقل بعضها إلى بلده ، ويبقى القسم الآخر منها ليتم بيعه عن طريق وكيله الذي يتركه في ذلك البلد[٢] ، كما كانوا على اتصال دائم بالتجار الأوربيين[٣] يبتاعون منهم المنتجات الثمينة كالأقمشة رفيعة المستوى التي كان لها رواج في البلاط الموحدى وبين الأسر الغنية في المدن الكبرى بالدولة . وقد بلغت تجارتهم في أوروبا بواسطة عدد من موانئ البحر المتوسط التي كان يقصدها التجار بأنفسهم، أو عن طريق تواجد تجار من جنسيات مختلفة داخل الأسواق كالجنويين[٤] والبيزويين[٥] والفلورنسيين ، فيذكر التازي أن أن لشركة كوكو وفيتورى من البندقية رجال من فلورنسا كانوا يعملون في بلاد المغرب[٦] وكذلك الأرجونيين والفرنسيين وغيرهم .

كما كانت بضائع تجار الجملة تصل إلى شمال إفريقيا ومصر عن طريق قوافل الحج وكانت القوافل تحمل منتجات المغرب من أقمشة وجلود وملح إلى بلاد السودان لتعود محملة بالذهب وريش النعام[٧] .

وقد كان هذا النوع من التجارة سبباً في ثراء الكثير من التجار ممن كانوا يتحملون المخاطر من أجل توفير بعض السلع اعتماداً على اختلاف الأسعار بين البلدين لأسباب يذكر ابن خلدون بعضها بقوله : " ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالاً ، لبعد طريقهم ومشقته ، واعتراض المفاذة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش ... وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق ، لبعد الشقة أيضاً[٨] " .

---

(١) عبد الحق بن إسماعيل الباديسي : المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تحقيق سعيد احمد اعراب ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٨٢م ، ص١٢٩

(٢) الونشريسي : المعيار ج٩ ص ٧٥-٧٦

(٣) عثمان الكعاك : الحضارة المغربية ، ص١٥٩ ، عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ، ص٧٦

(٤) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب قسم الموحدين ص ٣٤٦- ٣٤٧ ، النميرى : فيض العباب ص ٣٠-٣١

(٥) التازى : التاريخ الدبلوماسي ج٧ ص ١٧٥- ١٧٧

(٦) التازى : نفس المرجع ج٧ ص١٧٥

(٧) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مرين ص١٦٠

(٨) ابن خلدون : المقدمة ، ج٣ ص ٩١٨ - ٩١٩

وقد تحمل بعض التجار مرافقة الحملات العسكرية وما ينجم عنها من أخطار وقد باتت هذه المزاملة من قبل التجار ظاهرة معروفة على الرغم من اتسامها بالخطورة[١] .

كما كان هؤلاء التجار يقومون بدورهم في مجال التجارة الداخلية فيجمعون الصناعات المحلية والسلع الاستهلاكية ثم يبيعونها يوماً بيوم لتجارة التجزئة دينا[٢]. معتمدين في ربحهم على خزن تلك البضاعة ومن ثم تصريفها فيما بعد كما وجد قسم آخر منهم يستعينون بوكلائهم لتفقد أحوال الأسواق لمعرفة البضاعة النافذة فيطلب من تاجره إرسال تلك البضاعة إليه[٣]. فكان من الطبيعي أن تدر تجارة الجملة هذه على التجار الأرباح الوفيرة التي استثمروها في التجارة إلا أن أكثر استثماراتهم كانت في شراء العقارات والأراضي الصالحة للبناء لتشييد منازلهم الجميلة والحدائق والأراضي الزراعية[٤] .

- **تجار التجزئة (المفْرق ، بالمقطع):**

وقد انقسموا تجار التجزئة الى فئتين :

الفئة الأولى : كانوا يبيعون المنتجات الثمينة كالأقمشة الثمينة ، والأحذية الخاصة بالأعياد[٥] والحلي والمجوهرات ، والشموع وسائر المنتجات الاخرى ، وكان لهم مكان ثابت بالأسواق والقيساريات كما كانوا يحتلون الشوارع الصغيرة والمختلفة.

وكان أهل هذه الفئة أيسر حالا لأن المنتجات التى كانوا يبيعونها كانت فى الغالب منتجات ثمينة وكان أغلب زبائنهم من الاغنياء ، ولذلك فكانت أرباحهم كبيرة وهم يعدون من أفراد الطبقة الوسطى[٦] .

---

(١) ابن أبى زرع : الأُنيس المطرب ص ٣٥٢ ، ابن خلدون : العبر ج٧ ص ٩٦

(٢) ابن أبى زرع : نفس المصدر ص ٥٨ ، رجيه لوطورنو: فاس في عصر بن مرين ص٥١

(٣) الونشريسي : المعيار المعرب ج١ ص ٣٧٢

(٤) وتشهد بعض المنازل الجميلة التي شيدها بعضهم ، على أنهم كانوا يجنون أرباحا ضخمة . (روجيه لوطورنو : نفس المرجع ص ١٥٩-١٦٠)

(٥) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ج١ ص ٢٤٣- ٢٤٤

(٦) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مرين ص ١٦١

أما الفئة الثانية : فكانت تبيع سلع الاستهلاك اليومي ، وخاصة المواد الغذائية من الزيت والصابون والزبد والبيض والفواكه والحنطة والبقول والبصل والثوم وأشباهها[1] وكانت هذه الفئة أقل دخلاً من سابقتها ، فطبيعة منتجاتهم ونوعية زبائنهم لم تمكنهم من الحصول على أرباح كبيرة ، حيث كان أغلب زبائنهم من أبناء الحي . ولم يكن الفلاحون والمسافرون يشترون من هذه الفئة إلا من كان منهم له حانوت بالقرب من أبواب المدينة . ولذلك يعد تجار التجزئة من هذه الفئة صنفاً من التجار الفقراء يتساوون في مستوى معيشتهم مع الصناع فكان الكثير منهم مضطرين إلى شراء بضائعهم بالدين من تجار الجملة[2] .

• التجار الجائلون :

وهم جماعة كبيرة من القادمين حديثاً إلى المدن ، فيهبطون إلى الأسواق ساعين في سبيل الرزق وهرباً من القحط[3] فيقومون بحمل بضائعهم والتجول بها في الشوارع والحارات لبيعها ، قد أشار الونشريسي إلى أن بعض الباعة من المسلمين واليهود كانوا يقومون ببيع السلع للنساء في الدور ليس في الأسواق ويذكر أنه عند اشتداد الحر كان بعض النساء يخرجن إليهم سافرات الوجه[4] .

• علاقة الدولة بالتجار :

يرتبط التجار بالدولة على حسب قوة الدولة أو ضعفها ، فإن كانت الدولة قوية مستقرة كانت التجارة في استقرار وازدهار ، وان كانت الدولة ضعيفة اضطرب فيها الأمن ، كانت التجارة مضطربة والأسعار في ارتفاع .

ولهذا مرت علاقة التجار بالدولة الموحدية بمرحلتين :

المرحلة الأولى من سنة (٥٤١- ٦١٠ هـ / ١١٤٥-١٢١٣م) : فقد أشاعت دولة الموحدين الأمن في جميع أرجاء دولتهم خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي[5] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ج٢ ص ٣٢٧

(٢) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مرين ص ١٦٢

(٣) روجيه لوطورنو : نفس المرجع ص ٥٣

(٤) الونشريسي : المعيار ج٥ ص ١٩٧

(٥) عز الدين احمد موسى : النشاط الاقتصادي ص ٢٧٠

فقد أكد عبد المؤمن بن على " رسالة العدل " على حماية التجار وتأمين طـرق التجارة متوعداً بقتل من يخالف هذا الأمر[١] .

ومن اهتمام الموحدين بالأمن في دولتهم لم يترددوا في تسيير حملة على قبيلـة تعتدي على التجار مثل الذي فعله المنصور والناصر مع عتاة زناتة قرب تلمسان[٢] . كذلك قام خلفاء الموحدين بتعويض التجار عما يفقدونه في كارثة عامة[٣] وقد رخصت الأسعار ، حيث رفع المكوس (الضرائب) عن التجار ، وفرض عليهم ما تفرضـه الشريعة الإسلامية[٤] ، وكذلك تمهيد الطرق في جميع أنحاء البلاد[٥] .

المرحلة الثانية (٦١٠-٦٦٨ هـ / ١٢١٣-١٢٦٩م) : اضـطربت أحـوال الدولة وبدأ الانهيار والضعف وسقوط الدولة[٦] . فقد أثر هذا الوضع على التجار ، فقد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلاً ٦١٦هـ / ١٢١٨م ، وكانت الأحوال الاقتصادية تسير مـن سيء إلى أسـوأ[٧] . وانتشـرت الفوضى واضطرب الأمن واشتد الخوف في الطرقات ، وكثر الاعتـداء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ...[٨] .

---

(١) عز الدين احمد موسى : نفس المرجع والصفحة . ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ص١٦٧ . وقد انزل العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجار أو قطع الطرق التي عرفت ، منفذاً بذلك وعيده ، وسار خلفاؤه على نهجه. (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٣٦٧-٣٦٨، الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٦٧ ، المقري : نفح الطيب ، ج٣ ، ص١٠٧)

(٢) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص ٦٧

(٣) عز الدين احمد موسى : مرجع سابق ، ص ٢٧١ . في حكم الناصر سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م وقع حريق بحي القيسارية بمراكش ، وشبت النار أولا في حي القيسارية ، وانتشرت بسرعة ، وأتت على الحي كله ... وأمر الناصر في اليوم التالي ، بتتبع السفلة الناهبين، واسترداد ما يمكن استرداده منهم فقبض على كثيرين منهم وأعدموا على الأثر، وهلك في تلك النكبة كثير من الأموال والدور ، وافتقر كثير من ذوى اليسار ، وفقدوا دورهم وثرواتهم ، وأمر الناصر بأن يعاد تشييد الأحياء المحترقة بأحسن مما كانت عليه. (ابن عذارى المراكشي : البيان ، القسم الموحدي ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥)

(٤) ويصف الإدريسي : ذلك بقوله : " فلما ولى المصامدة (الموحدون) وصار الأمر إليهم قطعوا القبلات بكل وجه وأراحوا منها..." (الإدريسي : نزهة المشتاق ص ٢٣٥ -٢٣٦)

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمانة ص ٤٤١-٤٤٦ ، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ص ١٥٨ ، ١٥٩

(٦) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ج٥ ص٣٢٧

(٧) محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ص ٣٤١

(٨) ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ٣٥ . فقد ظهرت طلائع بن مرين سنة ٦١٣هـ /١٢١٦م في أحواز مدينة فاس ، وقد انتزعوا فيما بعد ملك الموحدين . (ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ١٠) . وقد ضعفت دولة الموحدين في أيام المستنصر ، واعتراها النقص ، وأخذت في الادبار . (ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٦١)

الخاتمة

obeikandl.com

الخاتمـــة

تناول هذا البحث التجارة الداخلية في المغرب الأقصى في عصر الموحـــدين، فتبين لنا أن المغرب الأقصى في عصر الموحدين مر بمرحلتين مختلفتين

المرحلة الأولى (٥٤١هـ/٦٠٩هـ) ، مرحلـــة القـــوة السياســـية والازدهـــار الاقتصادي .

المرحلة الثانية (٦١٠هـ/٦٦٨هـ) ، مرحلة الضـــعف السياســـي والانهيـــار الاقتصادي .

وفى بداية حكم الموحدين شهدت البلاد حالة من الازدهار الاقتصادي والسياسي والعسكري ، والاجتماعي ، والالتزام بما تفرضه الشريعة الإسلامية .

فقد سار خلفاء الموحدين على نهج عبد المؤمن بن علي الخليفة المؤسس الـــذي اهتم بمراكش عاصمة المرابطين التي دخلها سنة ٥٤١هـ/١١٤٥م ، وجعلها عاصمة دولة الموحدين ، وغرس البساتين حول مراكش ، وجلب لها الماء من أغمات وحفـــر الآبار والعيون ، وعظم إنتاج البساتين من الفواكه ومسح (حصر) جميع أراضـــي المغرب من برقة حتى المحيط الأطلسي ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عـــن سكان كل ولاية ، وعن خواصها وثرواتها وغلاتها وكان يرمي من ذلك إلى تقريـــر الخراج على الأرض ، واسقط الثلث مقابل مالا يصلح للزراعة (اتساع الدولة مهد لها موارد اقتصادية هائلة) . ولقد أشاع الأمن في جميـــع أرجـــاء دولتـــه ، واهـــتم بالتجارة الداخلية فعمل على حماية التجار ، وتأمين طرق التجارة متوعداً بقتـــل مـــن يخالف الأمر .

ومن أهم أعماله للتجارة قطع جميع المغارم والقبالات والمكوس التي فرضـــها المرابطون في آخر دولتهم ، وكانت تجبى الأموال خراجهـــا دون مكـــس ولا جـــور فكثرت الأموال وازداد الأمن في الطرقات في عهد الخليفة الثاني يوسف بـــن عبـــد المؤمن .

وهكذا ازدهرت أحوال البلاد في التجارة والسياسة وفى شتى المجالات في عهد الموحدين لانتشار الأمن وعدم فرض ضرائب أو مكوس أو مغارم أو قبالات. ففـــي عهد الخليفة المنصور وصلت الدولة الموحدية إلى ذروة عظمتها ومجـــدها " فتســـير الظعينة من برقة إلى بلاد السوس لا تخشى شيء" ، وزاد في وزن العملة الموحدية

فأصبحت أربعة جرامات وسبعين في المائة من الجرام ، بعد أن كانت سابقاً لا تتعدى جرامين وخمسة وثلاثين في المائة من الجرام . ومحاسبة أمناء الأسواق وشيوخ الحضر مرتين في الشهر . وانتصاره على ملك قشتالة في معركة الارك سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م انتصاراً ساحقاً زاد من هيبة الدولة بين نصارى اسبانيا . وظلت الدولة في قوة وازدهار ، وربطت مدن المغرب الأقصى شبكة من الطرق البرية . فقد اهتموا بتسهيل مركز النقل فعبدوا الطرق وسهلوا حركة المرور وتأمينها داخل الأسواق وخارج المدن . وتوفرت وسائل نقل تناسب حجم المبادلات التجارية سواء لاستخدامها داخل المدينة أو لنقل البضائع لعموم بلاد المغرب الأقصى والبلاد المحيطة ، واستخدموا النقل البري والنهري والبحري في انتقال السلع بين بلاد المغرب أو الأندلس أو بلاد السودان أو بين بلاد المشرق .

ومن أهم المراكز التجارية في المغرب الأقصى بعد مراكش قاعدت الدولة مدينة فاس منذ نشأتها في عهد الادارسة ، تأتي سبتة وطنجة وسجلماسة وأغمات وهذه المدن تأتي أهميتها لأنها موانئ بحرية أو صحراوية في طريق بلاد السودان فهي على طرق التجارة في المغرب الأقصى .

واهتمت دولة الموحدين بالأسواق في مدن المغرب الأقصى حيث يتم في السوق البيع والشراء فامتلأت الأسواق بشتى أنواع المتاجر التي تأتي بها القوافل القادمة من بلاد السودان ومدن المغرب لبلاد المغرب الأقصى . وتنوعت الأسواق بين اليومية أو الدائمة التي تختص بمكان معين تبعاً لأنواع السلع ، وكان تنظيمها يخضع لشروط كثيرة ، وعلى هذا الأساس يجد المرء بعض الصناعات داخل المدينة والقسم الآخر خارجها لاحتياج بعض الحرف إلى المياه لتصريف بقايا العمل فيها . وأسواق الجملة ومركزهم بجوار أبواب المدن ، ونجد هذا التصنيف في المدن الكبرى وخاصة في مراكش وفاس ، التي اختصت أيضاً بأسواق متخصصة يطلق عليها قيسارية تنشئ في المدن الكبرى . وتعتبر القيسارية مدينة تجارية صغيرة فكانت تحتوى على شتى منتجات الأسواق مجتمعه معاً ، وهى مقصد لكبار التجار . ولم تكن القيسارية تتكون من حوانيت فحسب ، إذ كانت تقوم إلى جانبها مخازن ، حيث كان تجار الجملة يخزنون بضائعهم قبل بيعها إلى تجار التجزئة ، وكانت القيسارية تضم في داخلها أسواقاً مختلفة . وكان يوجد أسواق أسبوعية أو دورية التي تقام في أيام معينة من

الأسبوع ، وهناك الأسواق الموسمية التي تقام في المناسبات . وهناك أسواق تتخصص في سلعة محددة مثل سوق الشماعين والعطارين والكتبيين في فاس

وقد اهتم الموحدون بالأسواق فعينوا الأمناء أو المحتسب وهو المسئول عن إدارة السوق وكان له مركزه المرموق بين الموظفين المدنيين ويطلق عليه صاحب السوق أو صاحب الحسبة أو الأمين فكان من مهام المحتسب مراقبة التجار والعمل على نظافة الأسواق والالتزام بتطبيق الآداب العامة فيها ومحاسبة العاملين في الأسواق ، ولكن كان التجار يبتكرون حيلاً جديدة أحالت دون تطبيق الحسبة على الأسواق تطبيقاً محكماً .

وقد أشرنا لدور العاملين في الأسواق في المساهمة في ازدهار الحركة التجارية في المغرب الأقصى وخاصة السماسرة والدلالون والجلاسون والحمالون والموثقون والسقاة وغيرهم من العاملين في الأسواق ، فهم الفريق الذي ينظم العلاقة بين البائع والمشترى في الأسواق .

وأشرنا لدور الفنادق في الحركة التجارية لإيواء التجار الغرباء .

ولم تكن التجارة تقوم على العملة (الدينار والدرهم) فقط بل كان التجار يستخدموا وسائل أخرى في المعاملات مثل السفاتج والصكوك والحوالات .

ولم تفرض الضرائب إلا في مرحلة الضعف فقد فرضت الضرائب على الأراضي وعلى التجار وعلى الحرف في نهاية حكم دولة الموحدين .

أما عن عناصر التجار من سكان المغرب الأقصى فكانوا من البربر والعرب والأندلسيين والسودانيين وأهل الذمة (اليهود والنصارى) .

كما ثبت من الدراسة الدور الكبير الذي لعبه التجار اليهود واستئثارهم بالعديد من الحرف والصناعات وتحكمهم في الصرافة والتجارة الخارجية . وتنظيمات التجار سواء تجار الجملة أو تجار التجزئة (المفرق – المقطع) أو الباعة الجائلين .

وعن علاقة الدولة بالتجار فقد ظهر واضحاً حيث خصصت الأمناء لمراقبة التجار ومعاقبة المخالفين وتأمين التجار في الطرق وكذلك فرض الزكاة أو فرض ضرائب عند احتياج الدولة للمال ، فعندما تكون الدولة قوية تكون التجارة والحركة

التجارية نشطة والحالة الاقتصادية مزدهرة . أما في حالة ضعف الدولة فالحالة التجارية تتدهور وتفرض الضرائب ويضطرب الأمن ويتدهور اقتصاد الدولة .

وفى عهد الخليفة الناصر محمد بن المنصور استطاع أن يقضي على ثورة بني غانية ، ولكن في عهده هزم في معركة العقاب من ملك قشتالة سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، فيعتبر هذا التاريخ هو بداية النهاية لدولة الموحدين ، حيث استمرت الدولة الموحدية تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاماً بعد معركة العقاب ، ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة ، إذ بدأت عوامل الانهيار والتفكك تنتاب الدولة ، وتظهر دويلات في بلاد المغرب (بني عبد الواد في التلمسان ، وبني حفص في تونس) ، ثم سقوط الأندلس في يد النصارى الأسبان ، وفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م تسقط على يد بني مرين .

وأرجو أن يكون ما توصلت إليه من نتائج في هذه الدراسة أسهاماً متواضعاً في أبراز خصائص تلك الفترة تجارياً واقتصادياً ، عن التجارة الداخلية في المغرب الأقصى ، إضافة علمية جديدة في طريق المعرفة التاريخية .

والله الموفق